في الجامعة المصرية

كرسى خاص

لدراسة الأدب المصرى الاسلامى

للأستاذ محمد عبد الله عنان

قرأت مع الغبطة نبأ ذلك الاقتراح الجليل الذى تقدم به صديقى الأستاذ العميد الدكتور طه حسين إلى مجلس إدارة الجامعة المصرية بوجوب إنشاء كرسى خاص للأدب المصرى الاسلامى ؛ وهو اقتراح لاريب أن سيلبيه المجلس الجامعى الموقر ، وسيلقى بلا ريب تأييداً حاراً من كل أولئك الذين يقدرون تراث التفكير القومى ، ويعتزون به ، ويتوقون إلى بعثه وإحيائه واستعراض نفائسه ، بعد أن طال الأمد على إغفالها ونسيانها .

ولقد حاولت منذ أعوام أن ألفت النظر إلى وجوب العناية بدراسة تاريخ مصر الاسلامية وآدابها ، وحاولت جهدى أن أحث الشباب المتأدب على قراءتها ودراستها ، وكان من بواعث دهشتى أن الجامعة المصرية الفتية لم تفكر منذ قيامها فى إنشاء كرسى خاص لتاريخ مصر الاسلامية ، وكرسى آخر لآدابها إلى جانب ما أنشأته من كراسى خاصة للتاريخ الأوربى والآداب الفرنسية والانكليزية : فاذا كان الأستاذ العميد يتقدم اليوم باقتراحه بانشاء كرسى خاص للأدب المصرى الاسلامى فهو إنما يعبر فى ذلك عن أمنية قديمة لنا جميعاً ، والجامعة إنما تعمل بتحقيقها على استدراك نقص فى دائرة الثقافة القومية كان خليقاً أن يستدرك منذ بعيد

والواقع أن الأدب المصرى الاسلامى لم ينل فى عصرنا شيئاً من العناية التى هو حقيق بها ، فى حين أن كثيراً من نواحى الأدب الأخرى من شرقية وغربية تنال من عنايتنا أوفر حظ ؛ ومما زال الأدب العربى يقدم إلينا فى صورته العامة ويمثل لنا بنوع خاص فى الأدب العباسى ، وقلما نعنى بدراسة نواحيه الخاصة ، بل إن الشباب المتعلم ليرغب اليوم عن الأدب العربى كله ويتجه شطر الأدب الغربى ، ويعرف من تطورات هذا الأدب ومن خواصه ما لا يعرف عن تطورات الأدب العربى وخواصه ؛ ويعرف من شخصيات الآداب الأوربية وآثارها ما لا يعرف عن شخصيات الأدب العربى وآثارها ؛ وإذا كانت ثمة أقلية من الشباب المتأدب تعنى بالأدب العربى على وجه التعميم ، فهى قلما تعنى بدراسة شىء من تراث أدبنا المصرى

ونحن نعرف الأسباب التى يرجع إليها هذا الشذوذ فى ثقافتنا الأدبية وهذا الانصراف عن تراثنا العربى وتراثنا المصرى بنوع خاص ؛ وهى أسباب سياسية واجتماعية لانرى محلا لاستعراضها فى هذا المقام ؛ بيد أنه يجدر بنا أن نشير هنا إلى سبب مادى واضح ، هو أننا لم نوفق حتى اليوم سواء فى برامجنا الدراسية أو فى بحوثنا الأدبية إلى تقديم الأدب العربى فى مثل تلك الصور الأنيقة الشائقة التى يقدم بها الأدب الغربى إلى قرائه ؛ ومن ثم كان انصراف الشباب عن الأدب القومى إلى صنوف منوعة من الأدب الغربى يجدون قراءتها كثيراً من المتاع العقلى ، فيؤثرها بعنايته وفراغه ، ولا يستطيع أن يتذوق بجانبها شيئاً من ذلك التراث الذى ما زال يغمره القدم وما زال يقدم إليه فى صور العصور الوسطى

وإذا كنا قد دعونا منذ أعوام إلى العناية بدراسة الأدب المصرى الاسلامى ، وإذا كنا نرى وجوب التخصص فى دراسة هذا الأدب ، فليس ذلك فقط لأن البواعث القومية تدعو إلى مثل ذلك فى كل أمة حية تشعر بماضيها وتعتز بتراثها القومى ، بل لأن هناك أيضاً من البواعث العلمية والثقافية والتاريخية ما يدعو إلى اعتبار الأدب المصرى الاسلامى وحدة أدبية مستقلة بين تراث الأدب العربى العام ، تستحق أن تدرس على حدة ؛ وأن تدرس خواصها وتطوراتها دراسة خاصة ، كما يدرس الأدب العباسى أو الأدب الأندلسى

بل نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إن الأدب المصرى الاسلامى يستأثر بمميزات خاصة قلما توجد فى فرع آخر من الأدب العربى ؛ نعم إن الأدب العباسى والأدب الأندلسى ، وأدب الشأم ، وأدب شمال إفريقية يمتاز كل منها بمميزاته الخاصة ، من إقليمية ، واجتماعية وسياسية ، ولكن الأدب المصرى فضلا عن احتفاظه بمثل هذه المميزات العامة يمتاز أيضاً بطابعه المصرى العميق ؛ وتبدو هذه الخاصة واضحة فى كل فنونه ومراحله ، وتكاد تغلب على كل خواصه الأخرى ؛ وذلك يرجع إلى عوامل تاريخية وثقافية خاصة ؛ فقد اتخذت الحضارة الاسلامية فى مصر طابعها الخاص ؛ وكان قيام الأزهر بالقاهرة منذ منتصف القرن الرابع عاملا جديدا فى توكيد هذا الطابع الخاص للأدب المصرى ؛ ولما انهارت الخلافة العباسية فى المشرق

وفرت العلوم والآداب الإسلامية أمام الغزاة البرابرة من السلاجقة والتتار، تبوأت مصر زعامتها الفكرية فى المشرق، ولبثت القاهرة بجامعتها الكبرى، ملاذ التفكير الاسلامى، حتى الفتح التركى؛ وفى جميع هذه المراحل كان الأدب المصرى الاسلامى يحتفظ بجميع مميزاته وخواصه فى جميع مناحى التفكير، فى الشعر والأدب والتاريخ والعلوم والفنون؛ وإذا كان الأدب المصرى قد تأثر فى العصور ببعض العوامل الخارجية، سواء من المشرق أو المغرب، فأنه لم يفقد شيئاً من خواصه الجوهرية ولم يفقد بالأخص شيئاً من طابعه المصرى العميق

ويبدو هذا الطابع المصرى الخاص لأدبنا الاسلامى فى تراثنا الفكرى بأوضح صورة؛ فى الرواية والتاريخ، وفى الشعر والنثر. وفى أساليب التفكير والكتابة، نلمس هذه الخاصة ولا سيما فى الشخصيات والآثار النموذجية؛ فأنه يصعب مثلا أن تجد بين شعراء العربية فى الأمم الأخرى، شاعرا مثل البهاء زهير، أو ابن نباتة؛ فهذان شاعران مصريان روحا ومعنى، يمثلان مصر أقوى تمثيل وأصدقه، ومن النادر أن تجد بين شعراء العربية من يحمل الرسالة القومية بمثل ما يتجلى فى شعرهما من إخلاص وقوة فى التعبير عن الروح القومى وكل خواصه ومميزاته؛ كذلك ينفرد الأدب المصرى بنوع من أدب الموسوعة أو (الأدب الانسيكلوبيدى)، ولدينا من ذلك آثار تعتبر بحق نماذج فريدة مثل نهاية الأدب للنويرى، ومسالك الأبصار للعمرى. وصبح الأعشى للقلقشندى، وهى آثار ليس لها نظائر من حيث تنوعها وطابعها العام، وتخصصها مع ذلك فيما عرضت إليه؛ وانفردت الرواية المصرية الاسلامية أيضا بمميزات خاصة تستحق أن تدرس على حدة. فأليها يرجع الفضل مثلا فى ابتكار فن الخطط والآثار، الذى يقوم على استعراض تاريخ المجتمع والحضارة إلى جانب تاريخ الدول، ونستطيع أن نقول بحق إنه لا يوجد بين آثار الرواية الاسلامية كلها أثر كخطط المقريزى فى طرافته وقيمته الاجتماعية والتاريخية؛ وهذه أمثلة قليلة من كثيرة نستطيع أن ندلل بها على ذلك الطابع القومى الخاص الذى يمتاز به أدبنا المصرى الإسلامى على غيره من آداب الأمم الإسلامية الاخرى

كذلك يجب ألا ننسى أثر الأزهر فى تكوين ذلك الطابع الخاص؛ وقد لبث الأزهر قرونا ملاذ العلوم والأدب فى مصر الاسلامية؛ وأثره فى تكوين تراثنا الفكرى أعظم من أن نحيط به فى مثل هذا المقام، وهو أثر يستحق أن يدرس لذاته ولأهميته

وإذا كان الأزهر نفسه أحق بأن يدرس تاريخه العلمى الحافل؛ فانه من المعقول أيضا أن تكون رسالة الأزهر فى ماضيها وحاضرها موضعا للدراسة المستفيضة فى استعراض مراحل الأدب المصرى الاسلامى التى تعنى الجامعة المصرية بالبحث فى إنشاء كرسى خاص لها؛ بل يلوح لنا أن مثول الأزهر فى تاريخنا الفكرى بمثل هذه القوة من العوامل الأدبية الخطيرة التى تملى بضرورة إنشاء هذا الكرسى الخاص

وقد كنا نود أن تعنى الجامعة المصرية إلى جانب عنايتها بأنشاء كرسى للأدب المصرى الاسلامى بأنشاء كرسى آخر لتاريخ مصر الاسلامية؛ فقد انقضى عصر طويل لم يحظ فيه تاريخنا الاسلامى بما يجب من الدرس والعناية؛ ونحسب أن العوامل السياسية التى كانت تملى من قبل باسدال الستار على ماضينا وعلى ذكرياتنا القومية المجيدة، وبتصوير مصر فى جميع مراحل تاريخها أمة مستعبدة، لم تذق فى ماضيها الطويل الحافل طعم الحرية والاستقلال قد انقضت؛ ونحسب أن الوقت قد حان لأن يعرف الشباب المصرى عن تاريخه القومى على الأقل مثلما يعرف عن تاريخ الأمم الغربية الذى تسخو برامجنا التعليمية فى تلقينه للطلاب، وأن يرفع عن تاريخنا ذلك الستار الذى أسدلته يد الأهواء، وأن نستعرض ذكرياتنا القومية المجيدة على ضوء البحث المنزه، فيكون لنا منها غذاء قومى حقيق، يخلق بالعصر الجديد الذى تستقبله مصر، فالتاريخ القومى فى جميع الأمم الحية عنصر هام فى تكوين الشعور الوطنى وفى تغذيته وإذكائه

فالمشروع الجليل الذى يتقدم به اليوم الأستاذ العميد إلى مجلس الجامعة المصرية إنما تملى بتحقيقه بواعث علمية وقومية معا؛ وما نحسب المجلس الموقر إلا سيقدر هذه البواعث قدرها وسوف يكون إنشاء الكرسى المنشود حادثا علميا فى تاريخ الجامعة المصرية، كما أنه سيكون حادثا قوميا فى تاريخ برامجنا الدراسية؛ وفى اعتقادنا أن الجامعة ستفهم مهمة هذا الكرسى بأوسع معانيها، فتجعل مته بداية حسنة لدراسات مصرية إسلامية شاملة فيما بعد، وسوف يكون لهذه الدراسات أكبر الأثر فى إحياء تراثنا الفكرى، وسيكون لها بالأخص أكبر الأثر فى التدليل على أهميته وعلى قيمته التى طمستها عصور طويلة من النسيان والنكران

محمد عبد الله عنان